د. يحيى عبد الرؤوف جبر

قصائد المعاني

يقف المطالع في كتب التراث اللغوي على أنواع مختلفة من المناهج التي صنف علماء العربية كتبهم على أساسها .

١١٨ الدارة

فمن الرسائل التي صَنَّفَها الرعيل الأول ، أمثال الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي حاتم السجستاني وغيرهم ،إلى الكتب التي وضعت لقصد التعليم ، على نحو ما يبدو في قول ابن قتيبة : «فلما أن رايت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان ، وخشيتُ أن يذهب رسمه ، جعلتُ له حظاً من عنايتي وجزءاً من تأليفي ، فعملت لمغفل التاديب كُتُباً خفافاً في المعرفة، وفي تقويم اللسان ، يشتمل كل كتاب منها على فن ...»⁽¹⁾

ومما ينسب للصاحب بن عبّاد قوله «لو أدركتُ عبد الرحمن بن عيسى، مصنف كتاب الألفاظ لأمرت بقطع يده، فسئل عن السبب فقال : جمع شذور العربية الجزلة، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب، ورفع عن المتأدبين تعب الدرس، والحفظ والمطالعة الدائمة الكثيرة...»⁽²⁾

وتتنوع مناهج التأليف، وتظهر مصنفات جديدة يعد في مقدمتها المعاجم اللغوية، وهي نوعان : معاجم الألفاظ أو ما أسماه ابن سيده بالكتب المُجنَّسَة »⁽3⁾ والنوع الثاني هو معاجم المعاني، أو، الكتب المبوبة في عرف ابن سيدة أيضاً. كما ظهرت أنواع مختلفة اخرى ليس المقال لحصرها.

واعتباراً من أواخر القرن الهجري الثالث، بدات عبقرية علماء العربية تتفتق عن أساليب جديدة ، ولاسيما أن الترف الفكري بدأ يأخذ منهم كل مأخذ، فابتدعوا العشرات⁽4⁾، والمُدَاخل⁽5⁾، والمُشَجَّر⁽6⁾، والمسلسل⁽7⁾، وكانت قصائد المعاني ضرباً متميزاً من التصانيف اللغوية يضاف إلى كل ماتقدم.

وقد استخدم العرب الشعر، ولاسيما بحر الرجز، كوسيلة لاختزال القواعد النحوية وتجريدها، وتعد ألفية ابن مالك خير مثال لذلك، ولكنهم لم يلجأوا إلى هذا الأسلوب إلا بعد أن أعياهم الجديد

في النحو، فراحوا يعيدون صياغة القواعد التى سبق بوضعها اسلافُهم، تماماً كما كان شأن المتأخرين في الشعر، حين راحوا يعارضون أشعار المتقدمين أو يشطرونها أو يفعلون نحو ذلك.

كما استخدم شكل القصيدة لصياغة الأحكام المختلفة، ومن ذلك قصائد المتون التي ظهرت في أَواخر العصر العباسي، كأن تجد قصيدة خصصها "صانعها" لأحكام الزكاة مثلاً، فهو يُضَمِّنها كل شاردة وواردة من ذلك. ومن هذا القبيل ماتجده من قصائد السير كالنونية القحطانية، والقصائد التي تدور حول موضوع علمي واحد، كتلك التي تعرض لموضوع علم الفلك من البروج إلى المنازل ونجومها وما تكون عليه طبائع الزمان في أوقاتها استناداً لما أَلِفه العرب من ذلك بالتجربة ودوام الملاحظة.

ونظراً لشيوع هذا النوع من القصائد، فقد رأيناها تخترق إطار العربية الفصيحة وأدبائها، لتنتقل إلى الأدب الشعبيّ واللغة الدارجة، الأمر الذي نشهد كثيرا منه في الأشعار النبطية، ومن ذلك على سبيل المثال قصيدة لمحمد بن عبدالله القاضي[8] المتوفي سنة ١٢٨٤هـ في حساب المنازل والبروج

غير أن القصائد التى نرمي للحديث عنها هنا ـ قصائد المعاني ـ تختلف عما تقدم من القصائد، ذلك أن الشعراء غالباً ما يكونون من علماء العربية، وهم يخصصون كل بيت من أبيات القصيدة لتوضيح معنى من المعاني التي تنصرف لها الكلمة التي يجرون القصيدة حولها، والتي غالباً ما تكون في المشترك اللفظي الذي يستخدم لمعانيَ كثيرة. والشائع في هذه القصائد أن يؤتى باللفظ المُفَسَّر كقافية في آخر كل بيت

ولعل أول من صنف قصيدة من هذا القبيل هو ثعلب، أحمد بن يحيى المتوفي سنة ٢٩١هـ، وذلك أننا لا نعرف قصيدة صنعت قبل قصيدتة التي ضمّنها معاني كلمة «الخال»، ثم كثر التصنيف في هذا المجال، ومن ذلك قصيدة في تعريف معاني الخال لأحمد بن معروف ـ وقيل معد ـ التجيبي الأقليشي، وأخري في معاني كلمة «صالح » وغيرها.

قصيدة «الخال»
لأحمد بن يحيى : ثعلب

وردت هذه القصيدة، بتمامها وترتيبها، في أكثر من مصدر ومرجع، ومنها نسخة خطية تحتفظ بها مكتبة برلين تحت رقم «٧٠٦٦^{1}»، ومن المراجع التي وردت فيها كتاب العشرات في اللغة(٩) لأبي عبدالله التميمي المتوفي سنة ٤١٢هـ، وكتاب اتفاق المباني وافتراق المعاني(١٠) لسليمان بن نبين الدفيقي المتوفي سنة ٦١٤ هـ. كما وردت في لسان العرب (خال)، والقصيدة فيها ثلاثة عشر بيتاً من الطويل، وعقب كل بيت جيء بتفسير معنى كلمة الخال الواردة فيه. ولتوضيح ذلك نورد الأبيات التالية:

١ ـ اتعرفُ أطلالاً شجونك بالخال
وعيشَ زمانٍ كان في العصر الخالي
أى الماضى. (تفسيراً لكلمة «الخالي» الأخيرة).

٢ ـ لياليَ ريعانِ الشّباب مسلط
عليّ بعصيانِ الأمارة والخالِ
أي اللواء (يُعقد للأمير).

٣ ـ وإذ انا خِدْنٌ للغَوِيِّ أخي الصبا
وللغزلِ المِرِّيحِ ذي اللهو والخال
أي الخيلاء.

٤ ـ وللخود تصطادُ الرجال بفاحم
وخد أسيلٍ كالوذيلةِ ذي الخال
أى الشامة

٦ ـ ويقتادني منها رخيمٌ دلالُهُ
كما اقتاد مهراً حين يُالَفُهُ الخالي
أى الخلاء.

ويلاحظ الدارس أن في هذه القصيدة ما يخرج بها عن كونها مصنوعة لتصريف معاني كلمة الخال، ذلك أن من مفرداتها المعشرة الخال الذي هو من مادة (خول) أو (خيل)، والخالي الذي هو (فاعل) من (خلا ـ يخلو). وقد تنبه إلى هذه الملاحظة، ونبّه إليها أبو عبد الله التميمي حيث قال بعد أن أورد القصيدة : «وفي هذا الشعر ماليس من بنائه فافهمه»(١١).

ويمكن إجمال المعاني التي فسّرت بها كلمة الخال (من خيل أو خول) فيما يلي: اللواء يُعقد للأمير، وعلم على موضع بعينه، الخيلاء، والشامة، وأخو الأم، والظالع ؛ أي الأعرج، ونوعٌ من الثياب،

والسحاب، إلى جانب عدد من المعاني التي فسرت بها كلمة الخالي، من خلا يخلو.

ومن قصائد المعاني أبياتٌ وردت في حرزة الحاطب وتحفة الطالب - كتاب تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها(١٢)، لأبي الحسن بن كيسان، وفي اتفاق المباني وافتراق المعاني(١٣) لسليمان بن بنين الذي سبق ذكره. وهي رجز من سبعة أشطار خُصص كلّ منها لتوضيح واحد من المعاني التي تنصرف لها كلمة «صالح». وإليك هذا المثال:

١ - لقد قدمت من دمشق صالحاً
أي سالماً
٤ - لأجذ بِنَّ النسْعَ جذباً صالحاً
أي شديداً
٥ - أو ألْقَيَنَّ بالعراق صالحاً
اي رجلًا بعينه

وهكذا، حيث وردت الأشطار مذيلة بهذه الكلمة في حالة النصب

* * *

ومن قصائد المعاني المشهورة، قصيدة نظمها العالم اللغوي أبو الحسين أحمد بن فارس، صرّف فيها معاني كلمة «العين» المختلفة، ففسر كلا منها في بيت الشعر ذُيّل بكلمة العين. والقصيدة من البسيط، وأبياتها ثلاثة عشر بيتاً

وقد وردت هذه القصيدة في معجم الأدباء(١٤) لياقوت الحموي، حيث جاء في ترجمة لابن فارس مانصه: «وقرأتُ(١٥) بخط الشيخ أبي الحسن علي بن إبراهيم السلمي، وجدتُ ابن فارس على وجه «المجمل»، والأبيات له، ثم قرأتُها على سعد الخير الأنصاري، وأخبرني أنه سمعها من ابن شيخة أبي زكريا عن سليمان بن أيوب، عن ابن فارس» ثم ذكر الأبيات.

وجدير بالذكر أن ابن بنين أورد نصاً كهذا في كتابه اتفاق المباني(١٦)، حيث أورد هو الآخر الأبيات كما هي عند ياقوت. ونشير هنا إلى أن ابن بنين كان قد التقى بياقوت، وأجازه برواية جميع كتبه(١٧)

كما وردت هذه القصيدة بتمامها في لسان العرب (عين) روايةً عن ابن برّي، ودون نسبةٍ إلى قائل معين. كما وردت في مقدمة كتاب الإتباع والمزاوجة(١٨) اثناء تعريفه بكتاب المجمل لابن فارس، وفي كتاب الصاحِبِي(١٩) له أيضاً.

ومما لاشك فيه أن ابن فارس إنما

صنف هذه القصيدة متأثراً بصنيع ثعلب في قصيدة «الخال» سالفة الذكر، ونشتمُّ ذلك من ورود كلمة «الخال» في البيت الأول منها. قال ابن فارس:

يا دار سُعدى بذات الخال من إضم
سقاكِ صوبُ حيا من واكف العين

حيث فسّر العين هنا بالسحاب ينشأ من قِبَلِ القبلة. ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة »(٢٠)

وبعد البيت :

إني لأذكر أياماً بها، ولنا
في كل إصباح يومٍ قُرَّةُ العين

العين هنا، الانسان وغيره.

وفي آخرها يقول ابن فارس :

والمُجْمَلُ المْجتبىٰ تُغني فوائدُهُ
حُفّاظَهُ عن كتابِ «الجيم» «والعين »

يريد كتاب الجيم في اللغة، لأبي عمرو الشيباني المتوفي سنة ٢٠٦هـ، وكتاب العين للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥هـ

* * *

ومن قصائد المعاني قصيدةٌ للأقليشيّ جمع فيها تَصُرُّفَ الحالِ ووجوهها، وقد وردت هذه القصيدة في كل من كتاب اتفاق المباني(٢١)، وفي لسان العرب روايةً عن ابن بري دون نسبة إلى قائل. وهي من البسيط وأبياتها عشرة.

وتمتاز هذه القصيدة عن غيرها من القصائد المشابهة بأنها أوضح في الدلالة على المعاني التي تنصرف لها كلمة الحال، إلى جانب أن الناظم كان يستشهد لمعانيه ويسهب في توضيحها إلى درجة أنه ربما ردّ اللفظ لمعناه، لإحدى اللهجات العربية القديمة، على نحو ما ذكره بعد هذا البيت

٨ ـ ماذا المحال الذي مازلتُ أعشقه
ضيعت عقلي ، فلم أصلح به حالي

قال الاقليشي:

حال الرجل امرأتُه، وهي عبارة عن النَّفْس، وهي لغة هذلية. ونقول : قال ابن الأعرابي(٢٣): حال الرجل امرأته، هذلية، وأنشد:

يارِبَّ حالٍ حوقل وَقّاع
تركْتُها مُدْنِيَةَ القناع

ومن قبيل ماتقدم، أنه استشهد لمعنى الحال بقول امرىء القيس، على النحو التالي.

٩ ـ ركبتُ للذنْبِ طِرْفاً ما له طَرَفٌ
فيا لِراكِبِ طِرْفٍ سَيِّءِ الحال

حال الفرس: طرائق ظهره، وقيل: مَتْنُه. وقد ذكره امرؤ القيس في شعره:

يزلُّ الغلامُ الخِفُّ عن حال متنه
كما زَلَّتِ الصفواءُ بالمُتَنَزَّلِ (٢٤)

ومن الملاحظ أن المعاني التي تنصرف لها الألفاظ المعشرة في هذه القصائد - وغيرها كثير - تبرز الأسباب التي تثري اللسان العربي بالمعاني المختلفة وتعكس بعضاً من وسائل العربية وأساليبها في التعبير عما يستجد في السجل الحضاري العربي من أمور، كالمجاز وقصر الدلالة وتوسيعها ونقلها لسبب أو لآخر، وغير ذلك من الوسائل.

ففيما يتعلق بمعاني "العين"، ليس هناك شك في أنّ الأصل فيها أن تكون للدلالة على الباصرة، ذلك لأنها سبيل الإنسان الى معرفة المعاني الأخرى، وهذا يقتضي أن تكون لهذه الدلالة أولًا، ثم كان الصرف المجازي لعلاقات مختلفة، فأطلقت على الماء ينبع من الأرض لعلاقة المشابهة في الشكل وسيلان الماء (والدمع). ثم على نوع من السحب المطيرة، وهذا أيضاً على التشبيه بالعين التي تسيل بالماء على سبيل المبالغة. ومن هذا القبيل إطلاق اللفظ على الثقب يكون في المزادة، لجامع الشبه، أما إطلاق «العين» على الواشي، فهو، وإن كان من المجاز، إلا أنه لعلاقة مختلفه تقوم على الجزئية، حيث إن العين، يعتمد عليها الواشي أو الجاسوس، هي جزء منه، وهذا من باب تسمية الكل بجزئه

وما هذا الذي أسلفنا بمقصور على معاني الألفاظ التي تقوم عليها قصائد المعاني، ولكنه يصدق على كل مايعرف بالمشترك اللفظي، أو ما اتفق لفظه واختلف معناه بما في ذلك الأضداد.

* * *

وباختصار، فإن استخدام القصائد والأراجيز في غير ما درج عليه الشعراء والرجّاز العرب، على النحو الذي أسلفنا، يعكس مرحلة متقدمة بلغها فَنُّ التصنيف عند العرب، ويمكن حصر أنواع القصائد والأراجيز غير «الغنائية» فيما يلي:

١ - قصائد المتون، وهي التي تُضَمَّن القواعد الأساسية والأحكام التي يقوم عليها علمٌ بعينه، ومن ذلك:

أ ـ قصائد الأحكام، وهي غالباً ما ينظمها فقهاء يضمنونها أحكام الفقه على أحد المذاهب، كالذي نجده في كتاب كوثر المعاني للشيخ الشنقيطي.

ب ـ قصائد القواعد النحوية والصرفية والعروضية ونحوها، ومن قبيل ذلك ألفية ابن مالك وغيرها، كالأشعار التي تُضَمّن أحكام التجويد، أو تجمع فيها حروف إخفاء النون والتنوين على سبيل المثال .

جـ ـ قصائد العلوم، كقصائد احمد بن ماجد في علوم البحر، ومن قبيل ذلك في النونية:(٢٥)

ياليلة باتَ « للنسرين » أولها
أرنو بطرفي، و آخرها « للذراعين »

ماذاك إلا لجري الفُلْك بينهما

«والجوش» يجذُبُها بين السماكين

في النجم أجرى وبحرى في النجوم يُرى

قبل « القياس » بعين القلب والعين

٢ ـ قصائد المذكر والمؤنث، وهي من

قبيل ماتقدم، وإن كانت تختلف في موضوعها، ومن ذلك ما أورده السيوطي(٢٦) في المزهر نقلا عن مختصر العين في مايؤنث ولايذكر:

الساق والأذن والأفخاذ والكبد
والقلب والضِّلَع والعوجاء والعَضُد
والزَّند والكف والعجز التي عُرفت
والعين والعُرْقُب المجزولة الأحد

إلى آخر الأبيات.

٣ ـ قصائد الألغاز والأحاجي. ومن ذلك ما أنشده الجوهري في الصحاح(٢٧) :

وما ذَكَرٌ فإنْ يكْبُرْ فأُنثى
شديدُ الأَزْمِ ليسَ بذى ِ ضُروس

قال هو القُراد، لأنه إذا كان صغيراً كان

قُراداً، فإذا كَبِر سمى حَلَمَة وأمثلة ذلك كثيرة أوردها السيوطي في المزهر(٢٨).

٤ ـ قصائد المعاني، وهي موضوع هذه الدراسة.

● الهوامش ●

(١) مقدمة أدب الكتاب من ص ١٠، ١١

(٢) انظر ترجمة عبد الرحمن بن عيسى في مقدمة كتابه «الألفاظ الكتابية» ص ٤

(٣) المخصص ١/ ١٠ ـ ١٢

(٤) من ذلك عشرات أبي عمر الزاهد، وعشرات أبي عبدالله التميمي، بتحقيقنا.

(٥) من كتاب واحد لأبي عمر الزاهد بتحقيق محمد عبد الجواد.

(٦) ككتاب شجر الدر لأبي الطيب اللغوي.

(٧) منه كتاب المسلسل للأشتركوني.

(٨) انظر ص ١١٢ ومابعدها من «منتخبات من الشعر النبطي لأشهر شعراء نجد»

(٩) ص ٨٦، ٨٧، وهو بتحقيقنا.

(١٠) ص ١٢٣، ١٢٤، وهو بتحقيقنا أيضاً

(١١) العشرات في اللغة ص ٨٧

(١٢) ط لايدن سنة ١٨٥٩م، بعناية وليم رايت، ص ٦٠

(١٣) ص ١٢٤

(١٤) ٤/ ٩

(١٥) الضمير عائد على ياقوت نفسه.

(١٦) ص ١٠٧، ١٠٨

(١٧) معجم الادباء ٤/ ٢٥٠

(١٨) لابن فارس، تحقيق كمال مصطفى، ط السعادة سنه ١٩٤٧ ص ٢٣ ـ ٢٥

(١٩) ط المكتبة السلفية ـ القاهرة سنه ١٩١٠ م الصفحات (يه ـ يو) من المقدمة

(٢٠) الموطأ. كتاب الاستسقاء، باب الاستمطار بالنجوم ١٣/ ٥.

(٢١) ص ١٢١، ١٢٢

(٢٢) مادة (حول)

(٢٣) التاج (حول)

(٢٤) ديوان امرىء القيس ص ٢٠ برواية صدره : كميت يزل اللبد ...

(٢٥) كتاب الفوائد ص ٥٣.

(٢٦) ٢/ ٢٢٣

(٢٧) مادة (قرد)

(٢٨) ١/ ٥٧٨ مابعدها.